مجرّد كلام...

قصة بقلم
أبو بكر عبد الظاهر

كانوا لا ينطقون . ولما حاولوا النطق لم يقولوا شيئا . وكل ما قالوه لم يكن كلاما . ظنوا كل ما اهتزت به احبال الصوت في محبس الحناجر كلاما . اي كلام . على كل حال ... كل ما رأيته يتسرب من بين شفاههم لم افهمه . بل لعلني فهمته فلم اجده كلاما. ليتكم تعودون الى خرسكم يا ذوي الشفاه المحنطة . يا ذوي الحناجر الطبلية الصدى . لكن سيل الهدير قل . وبردت مني طاسةالرأس واصابع القدم . فتيقنت انها بوادر الغثيان .

صحوت على يد تهزني . تحت الشارب الكثيف اسنان سوداء، وفوقه عيون مجهدة لكن عليها بسمة طيبة .. « التذكرة لو سمحت» يا غتني الطلب . بسرعة سرحت يدي في جيوبي ، ثم نبهت آتى ان التذكرة مطوية ومحشورة بين اصبعي والدبلة . قدمتها ليدالمفتش الممتدة لتمزقها وتعيدها اليّ ممزقة . ابتسمت . غريبة .. كل هم هذا الرجل ان يمزق التذاكر ثم يعيدها للركاب .. آكل عيش . ثم مضى الرجل .

لكن يا ثرية العيون ، يا جريئة العيون ، حان دوري . انا الذي اتكلم الان . كل ما قلته كان كذبا . لا . لست اقصد انه كذب متعمد. ربما لم تفهمي فكان كلامك طنين حنجرة ليس اكثر . لم يكن صحيحا ان السبب هو انني فنان . فعلى الرغم من ذلك ، فان هذه الصفة ـ التي تصرين على الصاقها بي على عكس زوجتي ـ سمعدني، وتزيد اعماقي كلما سمعتها منك حفنة من ذهب نقي ، ونقربني من خط اليقين . وان ما افعله ليس مجرد توسيخ مساحات بيضاء كما قالت زوجتي ذات مرة ، على الرغم من كل هذا فان هذه الصفة لا تنفي انني رجل . بل رجل اولا .. فديما قالوا : ان جوهر الشيء لا يتغير بتغير صفاته .. كلام . اي كلام لكنه على الاقل ليس طنين حناجر .

شعرت بلسع في رسغ يدي .سحبتها بعيدا عن حافة الشباك . تأملت الرسغ فوجدت عليه نملة . لا ادري لماذا اندهشت لوجود النملة. اكثر من الف الف نملة مرت تحت عيوني فلم اعجب . استبعدتوجودها هنا . ليس عالما ، سيقتلها ذلك المناخ . اهتز في داخلي وتر اسيان . نملة في عالم مركب من الحديد والزجاج والكهرباء .مستحيل حملتها بين اصبعي واسقطتها على حافة الشباك دون اذى . وقبل ان تعود نظراتي الى حيث كانت على نقطة ما في جدار المترو لمحت على حافة الشباك بعض فتات الخبز ، متناهي الصغر ، منثورا في حبيبات كالرماد . ابتسمت . كدت احيي النملة ، لولا خجلي منعيون بقية الركاب .

آه ... وليس السبب كذلك يا نارية العيون انك باردة ، كما تقولين ، او كما يقول زوجك المحنط الذراع والفخذين . لا شك ان سني عمره التي تزيد على نصف قرن بكثير ، بكثير جدا تسمح له بان يحكم على الاشياء حكما ذا خلفية عريضة من الخبرة والرؤية الناضجة ، الا في هذه النقطة بالذات فاني اراه خبيثا فقط . والحق انني اعذره . مقابل هرم صدات اسلحته وكادت تبلى . لكن اؤكد لك ان عيونك النارية عندما انفرست في عيوني افلقتني . ثم تمكنت من اشعالي بسرعة فائقة انزعجت لها . احتواني السيل الساخن المنحدر منهما بلا توقف وانجدلت حوليفي تشابك محكم كل خيوط الرغبة ذات الفحيح اللافح التي نسجتها نظراتك . بعد ساعات لا تعدو اصابع اليد غصت بين الذين يسيرون بلا اقدام . عدت لا ارى مع كل اتساع عيوني الا عيونك . استنزف شبحكل ما بقي من ذرات الخيال في ثنايا عقلي المجنح الممرور المزاج . مزاج الفنان كما تقولين. وفي ليلة ويوم ليس اكثر احسست بزوجتي مجرد كون منسق الترتيب من اللحم المتنفس يشغل حيزا من فراشي . نعم .. ليس اكثر . هل قلت اللحم .. لا لا .. خانني التعبير . انت فقط اصبحت اللحم بالنسبة لي . اما هي فلم تعد الا بقايا خبز فقط . بعدها لم تنطبق جفوني . كنت احملق فيها من خلال الضوء الشاحب المتسلل الينا من الردهة فاراك مكانها . ولان هذا التصور اللحوح كان يشعلني ، يصهرني ، فانني من ثم تيقنت انك نارية الفراش ايضا . ولم اكن قد مستك بعد . لكنني تيقنت من ذلك وكفى .وكانهذا اليقين يزيد من اشتعال اللهب . المتقد بين فقرات ظهري . ويسرى مع الشرايين الى بقية تجاويف الجسد حتى شمل اطرافي نفسها ، التي كانت دائما ثلجية الملمس . ويزيد من حنقي على الجسد الرائع التكوين الرافد بجانبي . لكنه مذاق الخبز .. الخبز فقط . عندئذ يانارية العيون اشتهيت اللحم بجنون جعلني انتبه الى اسناني وهي تقضم الفراغ ثم تنطبق في احكام وعنف يؤلم الفكين ويمد الرأس بحفنات من الصداء . وبلا جدوى حاولت اطباق الجفون . ولما فشلت في ذلك تماما وفشلت كذلك في وقف ضربات الصداع ، رأيت بعيوني المشدودة ان الذين يسيرون بلا اقدام لا يتحركون دائما فوق الحرير . قررت ساعتها ان البي نداءك ،كل ندائك ، بلا تحفظات حتى انياستعجلت طلوع الفجر .

توقف المترو فجأة مع صوت ارتطام وصرير لزحف العجلات على

حديد الفضبان . كدت انكفىء على المقعد المواجه . اعتذرت بخجل . ظل وجه السيدة التي قدمت اليها اعتذاري في المقعد المواجـــه محايدا . لكن زوجها قبل الاعتـــذار وهو يلاعب طفلا في همهمة مطحونة بين اسنانه وابتسامة شاحبة مرتبكة زادت من خجلي .

عاود المترو سيره . كان توقفه المفاجىء وسيره المفاجىء بـلا تعليل مفهوم . قبل ان تستقر عيوني على نقطتها المفضلة قامت بمسح المكان بسرعة وخفائية . فلاقت من عيـــون السيدة المواجهة نظرة مبتسمة متفاهمة مصوبة الى جواري . نظرت الى جانبي الى حيث تستقر النظرة . وجدت شابا معتما ترتفع الجريدة الى انفه وعيونه من فوقها تتلقى المد وتبادل التيار بتيار مشابـــه . لسبب او لآخر قررت استمرار المراقبة خلسة . فرأيت ان التيار حقيقي ومستمـــر ولا بد انه منذ زمن . منذ ان ركبنا المترو عـــلى الاقل . استغربت لما رأيت الزوج لا يدري . كان لا يزال غارقا في مـــداعبة الطفل ، غائصا تماما في الارتداد الى عالمه . يبدو ان الزوجة والشاب رأيا في نظارتي السميكة ستارا كافيا يبعدني عن صفوف الرقباء فأنكـرا وجودي . ثم أتاحا لتيار عيونهما مجالا للاستمرار والتأكد . نفحصت الزوج باهتمام . حاولت بجد أن افهم . آن استكشف . انبهـرت اذ رأيته اكثر وسامة . رزين الحركات والنظرات . بمقاييسنا نحن الرجال كان يكتسح الشاب الآخر في كل شيء اللهم الا في التأنق المتحذلق ولمعان الشعر . لكنني .. تكنني لمحت بين عيـــونه وخلف جبهته تلك المسحة من الاستسلام الطيب التي تعلو جباه جميـــع الازواج في عصرنا . انزعجت . كدت أصرخ فيه ان يوقف التيـار . ان يسحق الشرارة قبل ان تستفحل . كدت ابكي لفرحه الابـــله بالطفل . فمضغت صرخاتي . وهربت بعيـــوني بسرعة الى نقطتها المفضلة علـى جدار المترو . وحاولت ان اهـرب برأسي ايضـا .. لانني .. لانني .. لانني بدأت اغرق رويدا .. رويدا .. وباصرار ، نحو القاع . نحو نفس البوادر . بوادر الغثيـــان . لكنني باصرار ايضا ، تشبثت بالنقطة المحايدة .. فوق الجدار . وأخيرا افلحت. وتركت عيوني معلقة هناك .

قال صديقي القصاص : « اسمع . انت مثل كل الرجال هنا . في أعماقك كل فلسفات التميز التي شربناها جميعا مع اولى الرشفات من أثداء أمهاتنا . التي ظلت تؤكد بالحاح ان للذكر مثل حظ الانثيين معي . ومهما يكن موقفك الفكري من كل هذا ، لا شك ان الاسس قد تأصلت فشكلت المناخ والمزاج لك ، ولنا ايضا جميعا كرجال نشأنا هنا . كما سبق ان قلت . ألست معي ؟ بدون مقاطعة او اعتراض . أرجوك . اسمع حتى النهاية . و رتيبا على ذلك عندما حانت اللحظة. ومددت يدك لتفتح الباب . تداخلت كل الصور . كل فلسفاتنـــا . لا شعوريا بالطبع . ولا شعوريا ايضا انحسر موقفك الحضـاري ، ووقع الاسقاط . ومن ثم قام بينكما الجدار . وانتكست اعلامك . ها ها ها .. » .

أصبتني بالصداع . الله يسامحك . دائما يخنقني بهذا الاسلوب الذي يبذل جهدا في تكويناته الغريبة . به يتكلم ، ويكتب ، وبـــه يفكر ايضا . يرحمنا الله من هؤلاء القصاصين ومن الفلاسفه معا . ليتهم يتوقفون عن صنع هذا الرعب المتعمد . ليته كلمني بأشيـــاء أقل تعقيدا ، ربما كنت استفيد . لكن ماء الكولونيا التي يضعهـــا بحرص لا تروي ارضي . ابدا . لا تروي . كلام .. مجرد كلام .. أي كلام .. على الاقل في مسمعي أنا .

قامت السيدة الموجهة وزوجها والطفل . كان المترو قد توقف في محطة ما . تتبعتها بعيوني الى الرصيف . تسير ملتصقة بزوجها بهدوء ، تبادله نثارا من حديث عادي . لم تلتفت خلفها . وخلفهـــا الشاب الآخر ، جريدته مطوية ومدلاة من يده . نظراته تمسح كـل شيء حوله الا الزوجة . لم يحاول ان يثبت عليها عيونه . لكـن .. لكنني رأيت بين خطواتهما حبلا غير مرئي ، شبيها كالنغم المتسق . ذا رنين يشبه رنين التواطؤ . كانت خطواتهما لجـــوجة مثابرة ، تدوس فراغ صدري . تدوس مراكز الحس الانساني في حنجرتي . كانت .. كانت تجرحني . تمنيت لو ان الزوج قطع الحبل . تمنيت لو انني استطعت ارباك النغم . لكن الخطوات ظلت لجوجة ، مثابرة. وكذلك الحبل ظل حتى غابوا . الا ان الخطوات قبل ان تختفي كانت قد غرست في حلقي عصا جافة ، وأخذت أبتلع الريق بصعوبـة . ولانني لم أستطع شيئا ، حتـــى ولا مجرد الفهم فانني ابتسمت ، ولما ضبطت نفسي متلبسا بابتسامة واسعة لا معنى لها ، ولا مبرر ، خجلت . عدلت من وضع شفتي وضغطت عليهما بقوة .

تذكرت النملة .. وددت ان اراها مرة اخـــرى . بحثت عنهـا حيث وضعتها . لم أجدها . تجولت بنظراتي حول النافذة ، وعـــلى الجدار ثم على المقعد المواجه . استسخفت كل هذا الاهتمام بنملة . بدأت أؤنب نفسي على هذا التشتت الفارغ . جهدت ان اعود بنظراتي ورأسي الى حيث كانت ، الى حيادهم المفضل . ركزت عيونـي علـى نقطتهما المألوفة ، مترقبا سماع نكات العجلات على القضبان .

الآن يا نارية العيون . أظنك توافقين على ان كل ما قيل لم يكن صحيحا . أقصد لم يكن هو السبب الصحيح . لا لا .. اقصد ان كل سبب سبق قوله لم يكن هو السبب الوحيد الصحيح . يوه .. يبدو ان التعبير بدأ يخونني . المهم ان كل ما سبق كان كلاما . مجرد كلام .. أي كلام .. اما السبب الصحيح .. السبب الحقيقي ..

ذعرت لصفارة حادة تثقب أذني . التفت بحنق الى الكمساري ملتصقا بكتفي او يكاد . الوجه جامد ، هامد ، طيب الفسمات . كانت الصفارة تؤدي عملها بلا عداء قطعا . هدأ غضبي . حانت مني التفاتة عفوية نحو الرصيف . فوجئت بها واقفة هناك . تنتظرني . نارية العيون كما كانت . حسب الموعد . حسب الاتفاق . لنعيـــد التجربة ، علنا ننجح ، او لنؤكد الفشـــل مرة اخرى . نستريح . هكذا كان الاتفاق . أن نتأكد . ونستريح . نهضت بسرعة وقطعت الممشى بين المقاعد جريا ، وقبل ان اصل الى الباب كان قد أغلق ، وبدأ المترو في المسير .

السودان — **ابو بكر عبد الظاهر المحامي**

صدر اليوم

المورد الوسيط

قاموس انكليزي - عربي

للطلاب المدارس المتوسطة والثانوية

تأليف

منير البعلبكي

خمسون ألف كلمة انكليزية اختيرت على أساس علمي مدروس بوصفها أكثر الكلمات تداولا في اللغة الانكليزية ...

شروح مبسطة سهلة المنال تضع بين أيدي طلاب المدارس المتوسطة والثانوية وعامة المثقفين كل ما يحتاجون اليه في دراستهم او في مطالعاتهم الأدبية والعلمية ...

ضبط لطريقة لفظ كل كلمة انكليزية ، ونص على صيغ الجمع غير القياسية وعلى مختلف الأنواع الصرفية لكل مادة ، ومجموعة واسعة من العبارات الاصطلاحية (idioms) التي يحار الطلاب في فهم غوامضها ...

مئات الأمثلة النموذجية التي تزيد الشرح وضوحا ولا تبقي مجالا لأي لبس أو غموض ...

٦٧٢ صفحة من القطع الكبير • طباعة بالالوان • تجليد فاخر

الثمن ١٠ ل. ل. فقط — دار العلم للملايين